

تصميم

هذا الشاهد.. وهذا العصر!

ليس الإنسان فيلسوفاً بالطبيعة ، ولا فيلسوفاً بالفطرة ، وإنما هو فيلسوف عندما يوجد ما يدعوه إلى التفلسف ، فالفلسفة استجابة ذهنية ، كالشعر استجابة وجدانية ، لما في الواقع من دوافع ودواع ، أو هي تعبير عن ذوات العقول كما أن الشعر تعبير عن ذوات النفوس !

بعبارة أخرى . . ليست الفلسفة شيئاً آخر سوى تلك المحاولة التي يراد بها معرفة الله والإنسان والعالم ، وعلاقة كل بالآخرين الآخرين . . وذلك عندما نعرضنا مشكلة خارجية قد تكون طبيعية وقد تكون دينية وقد تكون اجتماعية ، وقد تجمع بين هذه الجوانب في بعض الأحيان ، المهم هو أن تقوم المشكلة التي تستدعي قيام الفلسفة ، التي هي منها بمثابة رد الفعل أوردج الصدى .
فلكى تكون هناك فلسفة فلا بد قبلاً من أن تكون هناك مشكلة ،

وفرد يحس بالمشكلة ويحاول أن يضع لها حلاً أو أن يتخذ منها موقفاً ؛
 فالفلسفة مشكلة وفرد وما بينهما من علاقة ، أو هي العلاقة القائمة بين
 ذات وموضوع . . موضوع يعطى المشكلة ، وذات تتعاطى هذه المشكلة !
 وليست هناك مشكلة في حد ذاتها أو مشكلة على الإطلاق ، ولكن مشكلة
 في بقعة معينة من المكان ، وفي فترة معينة من الزمان ، وبين تركيبة
 معينة من المجتمع . . . وعلى هذا الأساس أمكن القول بفلسفة العصر القديم ،
 وفلسفة العصر الوسيط ، وفلسفة العصر الحديث . . . مادامت المشكلة
 قديماً كانت صراع الإنسان مع الطبيعة ، ووسيطاً صراعه مع الدين ، وفي العصر
 الحديث هي صراعه مع المجتمع . . وعلى هذا الأساس أيضاً أمكن تخصيص
 القول بالفلسفة اليونانية والفلسفة الإنجليزية والفلسفة الأمريكية ، مادامت
 المشكلة لدى كل أمة تختلف عنها لدى الأمة الأخرى ، إذ البيئة غير البيئة
 والمجتمع غير المجتمع ، وظروف الحضارة غير ظروف الحضارة . وإذا
 تشابهت المشكلة ، فلا أقل من أن تختلف استجابة كل أمة عن الأخرى ،
 تبعاً لاختلاف هيكلها الاجتماعي ، وتكوينها الحضاري ، ومنطقها الخاص
 في التفكير . . فالفلسفة اليونانية عقلية تعتمد على القياس ، والفلسفة
 الإنجليزية تجريبية تعتمد على الاستقراء ، والفلسفة الأمريكية عملية
 تعتمد على مدى ما تحققه الفكرة من نجاح !

وليست المشكلة في داخل الفلسفة وإنما هي في الخارج ، أعني ليست
 الفلسفة هي التي تولد المشاكل وإنما هي تولد معها ، ويلدها الفيلسوف الذي
 يحتجزها من تيار الواقع وسيال الحياة ، فيحيلها إلى ذاته ، ويأخذها
 على عاتقه ، ويخرجها معبرة عن ذاتيته واجتماعيته في وقت واحد ، فالفيلسوف
 على الحقيقة هو من لا يحصر نفسه في المشكلة وإنما ينطلق منها إلى المجتمع

بأسره ، وهو من يجعلها ذات دلالة حتى تتسع فتشمل الآخرين !
 « إلغ فيكتور هوجو فلن يمنع ذلك من ظهور الحركة الرومانتيكية
 في الأدب الفرنسي ، ولكن أحداً من الناس ما كان يتبأ له أن يغني غناؤه
 في كتابه « البؤساء » و « أوراق الخريف » و « سير القرون » .

وعلى ذلك . . ليس المفكرون عقولاً فقط ، حياتهم خروج على الزمان
 دخول في الأبدية ! وأفكارهم صدور عن واحدتهم المطلقة وفرديتهم البهتة ،
 بل هم بشروهم أفراد ، يعيشون مجتمعاتهم . . يساهمون في مشاكلها ويشاركون
 في مسائلها ، فيفلسفون حياتها ويحيون فلسفتها . . ومن خرج على هذه الأنماط
 خرج بالتالي على هذا المجتمع ، ولم يعد يمثل سوى فكره الذاتي ومزاجه
 الفردي ، أو على حد قول الفيلسوف الكبير برتراند رسل :

« الفلاسفة نتائج وأسباب في آن معاً ، هم نتائج لظروفهم الاجتماعية
 ولما في عصورهم من سياسة ونظم ، وهم أسباب - إن كان لهم الحظ ،
 في المعتقدات التي تكيف سياسة ونظم العصور التالية » !

وهذا ما حدث في الفكر الإسلامي الوسيط حيث الغزالي ، وفي الفكر
 الإسلامي الحديث حيث العقاد ، وفي الفكر الإسلامي المعاصر حيث مصطفى
 محمود . الأول يمثل الايمان ، والثاني يمثل العقل ، ويمثل الثالث العلم
 أو التجربة . ولكن لندع الغزالي والعقاد جانباً وسنلقاهما في أثناء السير ،
 ولنتكلم عن مصطفى محمود . أو بتعبير أدق عن تيار العصر الذي وجد فيه
 وأوجد نفسه ، وأثر فيه بقلده ما كان أثراً من آثاره .

والقارئ لموجات التيار في هذا العصر ، يستطيع أن يردها موجة وراء
 موجة إلى عاملين رئيسيين يؤلفان فيما بينهما ما يمكن تسميته لا « بالمنهج الجدلي »
 حيث الدعوة ونقيضها والمركب منهما ، وإنما « بالمنهج التكاملي » حيث

الظاهرة متشابكة مع بقية الظواهر الأخرى ، بحيث لا يمكن دراستها من زاوية واحدة ، ولا فاض بكارتها من خلال منظور واحد ، ففى دراستها بمعزل أو على حدة موت لها وقضاء عليها وسلب لما فيها من حياة !

فالوجود الذى نعيش فيه على حد تعبير مصطفى محمود ليس وجوداً مفككاً ، ولكنه وجود متسق منظم تربطه القوانين . . والاختلافات الظاهرية فى الأشياء خلفها وحدة حقيقية ، هذه الوحدة الحقيقية ليكن اسمها ما يكون ، ولكنها على اختلاف المسميات جميعاً . . هى الشيء ، هى الغاية ، هى السبب ، هى الحقيقة ، هى الله !

ونعود إلى هذين العاملين الرئيسيين لنجد أولهما فيما يمكن تسميته بالعامل الاستاتيكي ، والآخر فيما يمكن تسميته بالعامل الديناميكي ، وأقصد بالاستاتيكي كل ما يتعلق بظواهر البيئة ، وبالديناميكي كل ما يتصل بظروف المجتمع . .

فالعقيدة الإسلامية إذا نظرنا إليها نظرة المؤرخ لا نظرة المفكر ، أى من حيث ما تركت فى النفس المصرية من آثار لا من حيث ما جاءت به من أفكار ، استطعنا أن نراها وقد طبعت العقلية المصرية بطابع من ينظر إلى الأمور نظرة الطاعة والولاء ، فإذا ما عرضت لها مسألة من المسائل ، أو إذا ما تعرضت لمشكلة من المشكلات . . إما أن ترجعها إلى الدين أو ترفعها إلى الله :

« وأما أهل الحق فجعّلوا الكتاب والسنة أمامهم وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرم عرضوه على الكتاب والسنة ، فإن وجدوه موافقاً لما قبلوه ، وشكروا الله عز وجل حيث أراهم ذلك ووقفهم عليه ، وإن وجدوه مخالفاً لما تركوا ما وقع لهم ، وأقبلوا على الكتاب والسنة » .

كما قال جلال الدين السيوطي في كتابه : « صون المنطق والكلام » .

والذى يعيننا هنا هو أن عقلية كهذه لا تكاد تحل المشكلة إلا بإحالتها إلى مبادئ أولى وغايات بعيدة ، إنما هي في طبيعتها أوعلى الأقل في تطبعها ، عقلية عملية تنكر النظر والفكر من حيث هما كذلك أشد الإنكار ، وتنظر إلى الدين على أنه وضع من أوضاع الحياة الواقعية ، يبدأ بمسلمات تلزم عنها نتائج وبالتالي فهو « ورقة عمل » ، أو « بوصلة » سير ، أو « خريطة » حياة ! ولا يبدأ الأمر عند الدين الإسلامى ، بل يسبقه إلى الزمن القديم ، حيث كان الكهنة كما يقول العقاد ، يستأثرون بالكلام في أصول الحقائق الكبرى ، وهى حقيقة الخالق والخلقة ، وكنه الوجود والموجودات ، فلا يسمحون لغيرهم بالتشكيك في العقائد التى يتوارثونها ، وينسجون المراسم والشعائر من حولها ، ويطول الزمن فتجمد هذه العقائد على أوضاع مقررة يعد الخروج عليها خروجاً على عناصر الإيمان ، وخروجاً على نظام الدولة وشعائر الطاعة والولاء .

وهذا صحيح . . . فى الزمن القديم قامت الكهانة مع قيام الدولة ، واستقر سلطان الكهنة إلى جانب سلطان الملوك ، وكما تولى الملوك تدير شؤون العيش ، تولى الكهنة تدير شؤون العقيدة ، فاستأثروا بالبحث فى العلل الأولى والغايات البعيدة ، فضلاً عن شؤون التربية والتعليم . وقوى سلطان الكهنة حتى أصبحت هذه المباحث وفقاً عليهم لا ينازعهم فيها غريب ، وحتى اعتبرت كهاتهم من قبيل المقدسات التى لا تهاجم ، وإلا كانت مهاجمتها مهاجمة للدولة نفسها ، ولا يخرج عليها أبداً وإلا كان الخروج عليها خروجاً على الملوك أنفسهم !

وفى الزمن الوسيط قامت الدولة مع قيام الدين ، وكانت مشكلات

الفكر هي نفسها مشكلات الواقع ، وما يدور في الذهن من أسئلة هو نفسه ما يحتاج في الواقع الخارجى إلى جواب . . فالتزاع على من يخلف النبي بين المهاجرين والأنصار ، والخلاف على الإمامة بين بنى هاشم وأبى بكر ، والصراع على الدولة بين على ومعاوية . . كل هذا مرتبط بنشأة الخوارج والشيعية ، ومرتبطة كذلك بنشأة القدرية والمرجئة ، والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومذهب أهل الحقيقة ومذهب أهل الشريعة ، وفرق الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار !

وهذا معناه أن سبباً من الأسباب التي تنشئ الفرق والمذاهب لم يكن متوافراً بل تهيأ للظهور من جميع نواحيه عند قيام الإسلام ، على أن السبب الذى طوى كل هذه الأسباب جميعاً هو قيام الدولة مع قيام الدين الإسلامى فى وقت واحد :

فالدولة الإسلامية فى ذلك الحين ، كانت دولة مليئة بإمكانيات التوسع والتمدد والانطلاق ، مهمة بشئون الحكم والملك والسلطان ، وكانت الشعوب التى دخلت الإسلام أو أدخلت فيه ، شعوباً عديدة ذات مشكلات مختلفة ومطالب متباينة ، فلم يكن يمكن للحضارة الإسلامية إلا أن تكون فى جوهرها « حضارة عمل » ، ولم يكن يمكن للدين الإسلامى إلا أن يكون فى واقعه دين معاملات ، وقد عبر أنس بن مالك عن ذلك بقوله :

« الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه . . ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » .

أما فى العصر الحديث ، فقد تأثر نظام الحكم بسياسة الاستعمار ، وقام الاستعمار فيما قام على دعوى العنصرية ، تلك الدعوة التى كانت

بمثابة «الغزو الثقافي» الذي يسبق «الغزو السياسي» ويمهد له الطريق ،
 ففي القرن التاسع عشر ، كان المجتمع الأوربي يصطرع بتزعات الاستعمار ،
 ويتأهب لأداء « الرسالة البيضاء » أو «رسالة الرجل الأبيض» وحقه في
 تمدن الشعوب المتخلفة أو الشعوب ذوات الألوان .

وانطلقت دعوى الآرية والسامية إلى العالم أجمع عبر مدرستين :
 إحداهما علمية يتزعمها العالم جوبينو J. Gobineau والأخرى فلسفية يتزعمها
 الفيلسوف رينان E. Renan ، الأول يصطنع المنهج العلمي ويعتمد على
 الملاحظة الحسية ، والآخر يصطنع النظر الفلسفي ويعتمد على اللغات
 المقارنة ، وكلاهما زميلان في حركة الاستشراق ، وكلاهما من فرنسا أحوج
 دول أوربا إلى الاستعمار والاستغلال في ذلك العصر !

وليس يهنا الآن أن نكشف عن سوء الفهم وسوء النية، اللذين ساعدا
 على ترويح تلك الخرافة التي ترضى غرور الأوربيين ومصالحهم في وقت
 واحد ، وإنما الذي يهنا هو أن نقف على مدى تأثير هذه الخرافة في أذهان
 المصريين ، ومدى تأثيرهم بها . . .

فقد وقع في روع « قادة الفكر » عندنا من صرعى المذاهب الأجنبية ،
 أن الأمة العربية قاصرة في ميادين الفكر والثقافة ، وأن قصورها لا يرجع
 إلى أسباب مرحلية تصدق عليها كما تصدق على غيرها ، ولكن إلى أسباب
 جوهرية في طبيعة الجنس والسلالة ، وأنه مادامت الحضارة الأوربية
 المعاصرة في حقيقتها امتداداً لحضارة اليونان ، ومادامت العقلية المصرية
 في أصلها « عقلية بحر أبيض » ، وما دامت الحضارة الإسلامية في جوهرها
 حضارة « سالبة » لا « موجبة » و « آخذة » لا « معطية » ، و « مقلدة » غير
 مبتكرة ، فلا مفر من أن تتلاقى الثقافتان ، فتأخذ الثقافة المصرية من ثقافة

أوريا ، ويتجه الفكر المصرى إلى الفكر الأوربى يحذو حذوه ويترسم خطاه !

تلك هى دعوى العنصرية . . وما أسفرت عنه من الدعوة إلى الحضارة الأوربية ، وما أدت إليه من انتشار المدارس التبشيرية ، والحركات الاستشراقية ، والمعاهد الأوربية فى العالم العربى الإسلامى . !

والذى يعيننا الآن ، هو أنه فى هذا الجو الحضارى المريض ، الذى تحطمت فيه بقايا المعنويات القديمة ، واتسعت فيه هوة الفراغ العقلى ، وخلا من الأنماط الثقافية الأصيلة ، ومن أى اتجاه نحو تصور حضارى واضح ، أو بعبارة أخرى خلا من أى أيديولوجية عربية إسلامية تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، أصالة القيم الإيجابية فى تراثنا ، مطورة إلى المفاهيم الفكرية والإنسانية فى هذا العصر ، كان لابد من محاولات رائدة كذلك التى بدأها جمال الدين الأفغانى محرر النفوس ، ومحمد عبده محرر العقول ، وعباس محمود العقاد واضع أسس الأيديولوجية الإسلامية ، ومصطفى محمود صاحب الإسلامولوجيا الجديدة ، أى تلك التى تجعل من الإسلام علماً له حق القيام مستقلاً عن النزعات الفردية أو المذاهب الشمولية ، وعليه واجب الانصهار فى أتون حياتنا اليومية ، وفى خضم معاركنا الكبرى !

وهنا فى هذا التيار . . تيار « الأصالة والمعاصرة » .. الأصالة فى العودة إلى تراثنا الفكرى والروحى الأصيل ، والصدور عنه بما يتوافق ومتطلبات الواقع وروح العصر ، واتخاذة وقوداً حياً فى مشكلاتنا الحياتية ، وقضايانا المصيرية ، نستطيع أن نضع مصطفى محمود لا باعتباره فيلسوفاً أو صاحب مذهب ، ولكن من حيث هو كاتب ومفكر ، تبلورت فيه وتركزت أفكاره ومشاعر كانت ولا تزال شائعة فى عصره ، على نحو مبهم ومبعثر ، فحاول

بوجوده ووجدانه ، بوجوده وتواجده ، أن يستوعبها ويتمثلها ، ويعيد طرحها من جديد ، غير منفصل عن أشرف ما في تراثنا من حقائق ، غير منعزل عن أروع ما في عصرنا من وقائع !

خاصة إذا علمنا أن الفلسفة الصادقة ليست دائماً نسقاً نظرياً قائماً على المجردات ، ولا هيكلًا صورياً عماده الاستدلالات ، وإنما هي أيضاً موقف فكري بإزاء مشكلات الواقع ، وقضايا العصر !

على أننا إذا كنا سنصادف نظيراً لبعض آراء مصطفى محمود عند الفلاسفة القدماء من أمثال أفلاطون في قوله بالمثل . . الحق . . والخير . . والجمال ، والغزالي في رحلته الروحية « المتقذ من الضلال » ، وابن عبد الجبار النفرى في مواقفه وفي مخاطباته للذات الإلهية ، أو عند الفلاسفة المحدثين من أمثال برجسون في قوله بالوثبة الحيوية والتطور الخالقي والحدس الصوفي ، وفرويد في تفسيره للأحلام على أساس من اللاوعى أو اللا شعور أو العقل الباطن ، وضمويل ألكسندر فيلسوف الزمان والمكان والألوهية ، فلا ينبغي أن يقال إن مصطفى محمود تأثر أو قلد أو لم يأت بجديد ، وإنما الواجب أن يقال إنها : « ثقافة الإنسانية الفكرية » استطاع كاتبنا المعاصر ، أن يجباها ويتمثلها ويستفيد منها ، فترددت في كتاباته أصداء العصر ، وتشكلت أفكاره بكل ما أسهم في تكوينها من حقائق أصيلة ووقائع معاصرة . !

ومهما يكن من أمر الأفكار التي تشابهت مع أفكار مصطفى محمود ، والأصداء التي ترددت في كعبه وكتاباته ، فإن الذي لا شبهة فيه ولا شائبة ، أن مؤلفاته ليست مجرد مرآة انعكست على صفحاتها قراءاته ، وإنما هي قد اشتملت على الكثير من الخطرات الفلسفية ، والمبادئ الأخلاقية ، والنظرات

الصوفية ، هذا بالإضافة إلى الآراء التي يمكن أن يكون لها أثر في حياتنا الاجتماعية !

فإن الجانب السلبي ، في كتاباته الذي يتمثل في معارضته للمذاهب الفلسفية السائدة في عصره كالماركسية والوجودية والوضعية المنطقية ، فضلاً عن النزعات العلمية المتطرفة القائلة بالاحتمية في العلم الحديث ، لتنتوي معاً على فكر أصيل ومعاصر ، يؤكد أصالته ومعاصرته ، قوله بمنهج الحدس الصوفي ، باعتباره أساساً للمعرفة ، وقوله بوحدة الذات المفكرة والعاملة في وقت واحد ، باعتبارها قاعدة للفعل ، وقوله بالتضامن الكوني أو تضامن الحقيقة الإنسانية مع الحقيقة الإلهية في وحدة حية أو حياة واحدة ، وقوله أخيراً بفكرة العلو أو التعالي ، علو الإنسان على كل ما حوله ، من أجل أن يكشف بهاء الحرية الروحية ، وأن يستعيد يقين الحقيقة العقلية ، وأن يجد الله . هذا بالإضافة إلى تحديده للعلاقة بين الروح والجسد ، وبين الله والإنسان ، وبين الماركسية والإسلام ، وبين الشك والإيمان ، وبين المتناهي واللامتناهي ، وبين هذا كله وكثيرة غيره مما يجعل منه بحق كاتباً أصيلاً ومعاصراً . . بل شاهداً على عصره !